(٤)
وقفات مع حجاج بيت الله الحرام

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

● **نفحات أيام مباركة :**

فى هذه الأيام الكريمة التى تُعتبر من أحب الأيام إلى الله تبارك وتعالى، والعمل الصالح فيها أحب إلى الله مما سواها من الأيام[١]، وهى أيام عشر ذى الحجة، التى شرع الله فيها للإنسان أن يزداد تقربًا إليه سبحانه بالتهليل والتكبير والتسبيح والتحميد[٢] والصدقة وفعل الخيرات وبالصيام، فقد شرع الله فيها الصيام، وأوكدها بلا شك هو صيام التاسع من ذى الحجة (يوم عرفة) أفضل أيام السنة على الاطلاق، كما أن ليلة القدر هى أفضل ليالى السنة على الإطلاق، وقد قال النبى ﷺ : « صيام يوم عرفة إنى أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده »[٣] يعنى الصغائر من الذنوب، فإن الكبائر لا يكفرها إلا الندم والتوبة النصوح، وقد قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم فى صحيحه :

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله عزّ وجلّ من هذه الأيام » يعنى أيام العشر. قالوا : يا رسول الله، ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال : « ولا الجهاد فى سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشىء ». رواه البخارى فى العيدين (٩٦٩) ورواه الترمذى وأبو داود وابن ماجة (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٣٥١ – ٣٥٢ برقم ٦١٠).

(٢) روى الطبرانى فى الكبير بإسناد جيد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أيام أعظم عند الله، ولا أحب إلى الله العمل فيهن من أيام العشر، فأكثروا فيهن من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى : ١ / ٣٥٢ برقم ٦١٠).

(٣) رواه مسلم فى الصيام (١١٦٢) وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن حبان، عن أبى قتادة رضى الله عنه، وتتمته : « وصيام يوم عاشوراء إنى أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله » .

«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»(١).

فى هذه الأيام المباركة - أيها الإخوة المسلمون - تهبّ علينا روائح الحجيج، تهب علينا نسمات الحج، تأتى عاطرة من الأرض المقدسة.. من مكة المكرمة. تهب علينا هذه النفحات والنّسمات لنستنشق عبيرها، ونعيش فى هذه الأجواء الربانية، أجواء تلك الشعيرة وتلك الفريضة العظيمة، التى هى الركن الخامس من أركان الإسلام: حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، ﴿ ..**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران: ٩٧]. من كفر أى: أعرض عن الحج. فوضع الله هذه الكلمة.. كلمة الكفر موضع الإعراض عن الحج، ليخوّف بها من لم يشتق إلى الحج، من لم تهفُ نفسه إلى أداء هذه الفريضة المقدسة، من لم يصطحب فيه الحج إلى بيت الله الحرام.

● **عبادات الإسلام المالية والبدنية:**

إن الإسلام قد شرع لنا فرائض وشعائر وعبادات، بعضها يُسمّيه العلماء: عبادات بدنية، وبعضها يُسمونه عبادة مالية، وبعضها يعَتبرونه جامعًا بين البدنية والمالية.

الصلاة عبادة بدنية تؤديها ببدنك، وكذلك الصوم، وإن كانت الصلاة فعلاً والصوم تركا، الصوم إمساك عن شهوتى البطن والفرج لله تبارك وتعالى، ولكنه عبادة بدنية.

والزكاة عبادة مالية، المال شقيق الروح، الإنسان يبذل المال لله تبارك وتعالى، ليزكى بذلك نفسه، ويطهر ماله، وينتصر على الشُّحّ الغالب على الناس: ﴿ ..**وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ..**﴾ [النساء: ١٢٨]، ﴿ ..**وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً**﴾ [الإسراء: ١٠٠] وصدق الله العظيم.

---

(١) رواه مسلم فى الطهارة (٢٣٣) ورواه أحمد والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

● **الحج عبادة مالية بدنية:**

أما الحج فهو عبادة جامعة بين الأمرين: عبادة بدنية وعبادة مالية.

الإنسان بالحج يجتهد، ويجهد، ويكدح ببدنه، وينتقل من وطنه إلى تلك الأراضى المقدسة، ويحيا حياة بسيطة أشبه بحياة الكشافين فى الخيام، وقد ينام على الأرض وعلى التراب، ويتحرك طائفًا بالبيت ساعيا بين الصفا والمروة، كلها تحتاج إلى جهد بدنى وسعى حركى.

وهى من ناحية أخرى تقتضى مالاً، لا بد للإنسان أن يحتاج إلى مال حتى يسافر إلى تلك الأراضى،، لم يكلفه الله أن يذهب ماشيًا، إنما يذهب راكبا. ولذلك اعتبر فى الاستطاعة – استطاعة السبيل إلى الحج –: أن يملك الزاد والراحلة. وإذا أردنا أن نُعبّر تعبيراً عصريًا عن الزاد والراحلة قلنا: أن يملك نفقات السفر، ونفقات الإقامة فى الأرض المقدسة خلال الفترة اللازمة له، على ما يليق بحاله، من غير إسراف ولا تقتير. قد يستطيع بعض الناس أن يركب الحافلة (الباص)، والآخر يركب السيارة ويذهب، وآخر لا يستطيع إلا أن يركب الطيارة، وآخرون يركبون البواخر والسفن. لا بد أن يملك نفقات السفر على ما يليق بحاله، ويملك نفقات الإقامة أيضًا على ما يليق بحاله، ويترك لأولاده ما يكفيهم حتى يعود، لا يدعهم دون شىء.

لذلك كان الحج عبادة بدنية ومالية.

ولأنها عبادة مكلفة إلى هذا الحد، جعلها الله مرة واحدة فى العمر. نجد الصلاة: فى كل يوم خمس مرات، والزكاة حَوْلية.. فى الحَوْل مرة، أو عندما يحصد الإنسان الثمر: ﴿ ..**وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** .. ﴾ [الأنعام: ١٤١]، والصيام فى كل عام شهر، أما الحج فيجب فى العمر مرة واحدة.

ولهذا كان السلف رضوان الله عليهم يسمون الصلوات الخمس ميزان اليوم، إذا استقامت لك صلواتك وأديتها فى أوقاتها، وأديتها بشروطها وأركانها وآدابها وخشوعها، فقد استقام ميزان يومك. وكانوا يسمون الجمعة ميزان الأسبوع، وشهر رمضان ميزان السنة، والحج ميزان العمر.

قال النبى ﷺ: «أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا». فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم..»[1] إنما فرض الله الحج فى العمر مرة واحدة، تيسيرا على الناس، وتخفيفا عنهم. وهكذا التكاليف فى هذا الدين، لا يمكن أن تكلف الإنسان ما ليس فى وسعه وما يحرجه فى دنياه أو فى دينه: ﴿ ..**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ..** ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿ .. **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ..** ﴾ [البقرة: ١٨٥].

● **بعض حِكَم فريضة الحج**[2]:

فرض الله الحج على من استطاع إليه سبيلاً لحكم عظيمة، ليستطيع المسلم أن يحقق القيم والمبادئ والمعانى التى جاء بها هذا الدين، يحققها مطبقة فى واقع الحياة.

● **الانقياد والخضوع لله عز وجل:**

١ - جاء الإسلام بالعبودية لله تبارك وتعالى، أن يقول الله عز وجل: أمرت وحكمت، ويقول العبد: سمعت وأطعت.

أمرك الله أن تذهب إلى هذه الأرض فتسمع وتطيع، تطوف بالبيت سبعًا لا خمسًا ولا عشرا، سبعًا يعنى سبعا، تبدأ من الحجر الأسود، لا يُحْسَب لك الطواف إلا من عند الحجر الأسود.

وليس الحجر الأسود كما يزعم بعض المبشرين معبودًا عند المسلمين، لا، الحجر الأسود هو بداية الطواف. المسلمون لا يعبدون الحجر ولا يعبدون الكعبة، إنما هى رموز كما قال الشاعر قديمًا:

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شَغَفْن قلبى ... ولكن حب من سكن الديارا

---

(١) رواه مسلم فى الحج (١٣٣٧) عن أبى هريرة، وهذا لفظه ورواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن ابن عباس.

(٢) راجع ما ذكرناه فى كتابنا: (العبادة فى الإسلام) ص٢٩٦، طبعة مكتبة وهبة.

OBEIKAN.COM

المسلم حين يطوف بالبيت ويقبّل الحجر أو يستلمه بيديه أو يشير إليه يقول: باسم الله والله أكبر، وبعض الناس يقول: اللهم إيمانًا بك – أى لا بالحجر ولا بهذه الأشياء – وتصديقًا بكتابك ووفاء بعهدك.

المؤمن يطوف بهذا البيت امتثالاً لأمر الله تبارك وتعالى: ﴿ **أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** ﴾ [البقرة: ١٢٥]. يطوف بهذا البيت سبعًا داعيًا الله عز وجل خصوصًا بين الركن اليمانى والحجر الأسود حيث كان النبى عليه الصلاة والسلام يدعو بهذا الدعاء القرآنى، الذى ما كان أكثر ما يدعو الله تعالى به: ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [البقرة: ٢٠١].

المسلم يطوف بالبيت، ويصلى ركعتين خلف مقام إبراهيم، والمسجد كله مقام إبراهيم، لو صلّى فى أى مكان فى المسجد أجزأه. يصلى صلاة خفيفة حتى لا يؤذى الناس ولا يضيق عليهم، يقرأ فى الركعة الأولى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** ﴾ [الكافرون: ١] بعد الفاتحة، وفى الركعة الثانية يقرأ: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ [الأخلاص: ١].

ثم يشرب من ماء زمزم، ويدعو الله عند شربه: اللهم إنى أسألك علمًا نافعًا ورزقًا واسعًا، وشفاء من كل داء.

ثم يذهب إلى الصفا والمروة، يقف على تلك الهضبة التى وقف عليها محمد ﷺ، فقد وقف على هضبة الصفا وتلا قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به»[١] هكذا قال رسول الله ﷺ. الله بدأ بالصفا: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ** ﴾ فبدأ بما بدأ الله به، وسعى الأشواط السبعة، وانتهى بالمروة.

---

(١) قطعة من حديث جابر الطويل رواه مسلم فى الحج (١٢١٨).

وبين الميلين الأخضرين هناك علامة ظاهرة بارزة يركض بينهما . . يسعى . . يكون أسرع فى المشى، تذكيراً لما حدث لأم إسماعيل عليها السلام (هاجر) حينما كانت تسعى تطلب الماء لطفلها الرضيع ملهوفة تدعو الله، حتى فجّر الله الأرض من تحت أقدامها وكانت (زمزم) .

الحج هو معايشة للذكريات القديمة والحديثة : الذكريات الإبراهيمية من قديم، والذكريات المحمدية من جديد . المسلم يعيش فى تلك الأيام مع إبراهيم عليه السلام، ومع محمد عليه الصلاة والسلام، مطيعاً لله تبارك وتعالى .

رمى إبراهيم الجمرات حينما أراد الشيطان أن يوسوس له وأن يغريه بعدم ذبح ابنه إسماعيل، فرماه بالجمرات . فالمسلم يطيع الله سبحانه وتعالى ويتعبد له برمى الجمرات .

يقول بعض الناس : وما قيمة أن يرمى الإنسان حصيات؟ هو يُجَسّد الشر ثم يرمى هذا الشر . هو رمز لإعلان المقاومة . . للإصرار على محاربة الباطل والشر والطاغوت . وهكذا يتمثل الناس هذا الأمر، حتى إن الناس يقولون عن الجمرات : إبليس الأكبر، وإبليس الأوسط، وإبليس الصغير، أو الجد والابن والحفيد . الناس يتصورون إبليس فيرمونه بالحصيات، وبعضهم يرميه بنعله . . إلخ .

الحج مليء بهذه اللغة الرمزية، والرمزية لغة عالمية، يستطيع كل إنسان أن يعيها، وأن يفهمها .

هكذا الحج، هو تجسيد لمبدأ العبودية لله، والطاعة لله، يقول الله : أَمرتُ ويقول العبد : سمعتُ وأَطعتُ يا رب .

هكذا علمنا الإسلام .

● هل فى الحج شوائب من الجاهلية؟

بعض الأفّاكين يقولون : إن الحج الإسلامى فيه خليط مما كان عليه أهل الشرك فى الجاهلية . لا، بالعكس، لقد نقّى الإسلام الحج من كل الشوائب الجاهلية وأرجاسها .

كانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه

وما ملك. يعنون الأصنام. فأبطل الإسلام هذه التلبية وأبدلها بقوله: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

أبطل الإسلام حج المشركين وطواف المشركين، فقد كانوا يطوفون بالبيت عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، عوراتهم مكشوفة حتى النساء! هذه الأشياء منعها الإسلام: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ..** ﴾ [التوبة: ٢٨].

جاء الإسلام وأبطل ذلك فى الحَجَّة التى حجّ فيها أبو بكر رضى الله عنه، وبعث النبى ﷺ على بن أبى طالب رضى الله عنه، يعلن على الناس هذه المبادىء الأساسية: «لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»(١).

● **الوحدة والتآلف:**

٢ – فى الحج أيضًا نتعلم معنى (الوحدة).

الله سبحانه وتعالى يجمع المسلمين من أنحاء الأرض، من المشرق والمغرب، من العجم والعرب، اختلفت ألوانهم ما بين أبيض وأسود، واختلفت أجناسهم، واختلفت طبقاتهم، واختلفت أوطانهم، ولكنهم جاؤوا جميعًا، صهرهم الإسلام فى بوتقة واحدة، ربهم واحد، نبيهم واحد، كتابهم واحد، قبلتهم واحدة، شعارهم واحد، نداؤهم واحد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

جاء الإسلام ليُجسّد وحدة المسلمين بهذه الفريضة. الوحدة الإسلامية تتجلّى فى هذا الحج.. فى هذا الموسم العظيم. لا فرق بين مسلم ومسلم فى هذه المناسك وأمام بيت الله الحرام، كلهم سواء، عالمية الإسلام تتجسد فى هذه الفريضة، الله تعالى يقول لرسوله: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ**

---

(١) رواه البخارى فى الصلاة (٣٦٩) ومسلم فى الحج (١٣٤٧) عن أبى هريرة.

OBEIKAN.COM

جَمِيعًا . . ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. هذه العالمية تتجسد فى الحج أوضح ما تكون، وأجلى ما تكون، هذا هو الدين العالمى، دين الأبيض والأسود، دين الشرقى والغربى، دين كل العروق والألوان واللغات والأقاليم.

هذا مؤتمر للمسلمين فى أنحاء الأرض لم يدع إليه ملك ولا رئيس، ولا أمير ولا وزير، إنما دعا إليه ربّ العباد، دعا إليه الله تبارك وتعالى من فوق عرشه، دعا الناس جميعًا إلى هذا المكان الذى تتجسد فيه عالمية الإسلام.

مليونان من الناس أو أكثر يلتقون فى هذه الأرض المقدسة، ليؤدوا هذه المناسك، ويؤدوا هذه الشعيرة، ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى.

● **السلام:**

٣ – من المعانى التى يُجسدها هذا الحج: السلام. الحج رحلة سلام، يسالم الإنسان فيها الناس، حتى الجدال ممنوع فى الحج: ﴿ . . **فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ . .** ﴾ [البقرة: ١٩٧]. لا تجادل صديقك ولا رفيقك، لا تجادل من تشترى منه أو تبيع له. كُن سهلاً هينًا لينًا سمحًا حتى تمر هذه الرحلة بسلام.

سلام حتى مع الحيوانات، لا يجوز له أن يصطاد صيدًا من البر، لا يصطاد أرنبًا ولا حُبارى ولا غزالاً ولا شيئًا من هذا ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ . .** ﴾ [المائدة: ٩٥] إلى آخر الآية الكريمة.

يريد أن يكون المسلم سَلْمًا فى هذه البلدة المحرمة، سلمًا للحيوانات، وسلمًا حتى للنباتات، مكة لا يُقطع نباتها ولا حشائشها، إلا الإذخر الذى يحتاج الناس إليه للحطب وللإشعال وغير ذلك، فالمسلم فى رحلة سلام، والحج تدريب على السلام.

لا يجوز القتال فى أشهر الحج ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ . .** ﴾ [المائدة: ٢].

هكذا أراد الإسلام: أن يعوّد المسلمين أن يعيشوا فى مناطق كلها سلام، وفى أشهر كلها سلام، وفى حالة – وهى حالة الإحرام – كلها سلام، إلا إذا اعُتُدِى عليهم. إذا اعتُدِى عليهم دافعوا عن أنفسهم. ولذلك النبى عليه الصلاة والسلام حارب وقاتل فى الأشهر

الحرم، لأنه بُدئ قبل الأشهر الحرم، فكان لا بد أن يدفع عنه نفسه، وأن يستمر القتال ولو جاء فى الأشهر الحرم، إنما لا يبدأ المسلمون بقتال فى الأشهر الحرم ﴿ . . **لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ . .** ﴾ [المائدة: ٢].

● **المساواة:**

٤ – من المبادئ التى تتجسد فى فريضة الحج: مبدأ المساواة، قيمة المساواة.

جاء الإسلام ليزيل الفوارق، ليحطم هذه الفوارق التى ميزت بين الناس، بأجناسهم، بألوانهم، بطبقاتهم، بأقاليمهم، بأمور شتى فرقت بين الناس بعضهم وبعض.

جاء الإسلام ليعلن المساواة بين الناس: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات: ١٣].

كل عبادات الإسلام وفرائضه وشعائره تُؤكد معنى المساواة. الصلاة نفسها هى دعوة إلى المساواة، تحقيق للمساواة، فلا يوجد فى المسجد لائحة تقول: الصف الأول للوزراء، والصف الثانى لوكلاء الوزارات، والصف الثالث لمديرى العموم، لا يوجد هذا، من سبق إلى مكان فهو أحقّ به[١].

ولكن يبقى فى المسجد مكان للتمييز، هذا يلبس دشداشة، وهذا يلبس قميصًا وبنطلونًا، وهذا عارى الرأس، وهذا يلبس قلنسوة، وهذا يلبس عمامة. الناس يختلفون فى أزيائهم من بلد إلى بلد، ومن مهنة إلى مهنة. أشياء كثيرة تفرق بين الناس، تظل هذه فى المسجد وفى الصلاة.

ولكن عندما يذهب الناس محرمين للحج: يخلعون هذه الأشياء كلها، ويلبسون ثيابًا بسيطة بيضاء، أشبه ما تكون بأكفان الموتى، كأنما تذكر الناس بالآخرة، تذكر الناس بعُرصات الحساب. يخلع الناس الأشياء التى تميز بعضهم من بعض، وهناك ترى الناس وهم يلبسون هذه الثياب فلا تميز أميرًا من مأمور، ولا مرؤوسًا من رئيس، ولا غنيًّا من فقير، ولا وزيرًا من خفير، كلهم سواسية.

---

(١) راجع ما ذكرناه فى كتابنا: «العبادة فى الإسلام» تحت عنوان: المسجد ورسالته فى الحياة ص٢٣٦ وما بعدها، طبعة مكتبة وهبة.

OBEIKAN.COM

ومن هنا أعلن النبى ﷺ للناس فى عرفة: «يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ألا هل بلغت؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فليبلغ الشاهد الغائب[١]. «إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد» الجميع مشتركون فى العبودية لله والبنوة لآدم.

هكذا جاء الحج يؤكد معنى المساواة التى تَميّز بها الإسلام.

الحضارة القائمة حضارة تَمييز عُنصرى ولونى، حتى الكنائس عند الغربيين هناك كنائس للبيض وكنائس للسود، لا يعرفون المساواة، حتى الشيوعيون الذين زعموا أنهم جاؤوا بالمساواة، وضحَّوْا بالحرية من أجل المساواة لم يحققوها. وحينما كان بعض الطلاب الأفارقة يدرسون فى (موسكو) أيام استعلاء الشيوعية واستعلانها أحبّ شاب أفريقى فتاة روسية وأحبته، فكانت النتيجة أن غضب الطلاب البيض وقتلوا هذا الشاب الأفريقى! وهناك غضب له إخوانه وسيروا له مظاهرة تهتف بسقوط العنصرية والتمييز، فقام الطلاب البيض بمظاهرة مضادة يقولون لهم: عودوا إلى غاباتكم أيها القرود!!

هذه هى النظرة الشيوعية إلى الشعوب الأفريقية التى كانوا يزعمون الدفاع عنها.

الإسلام هو الذى حقق المساواة بين الناس بعضهم وبعض، هى مساواة حقيقية. عمر رضى الله عنه يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا. يقصد أعتق بلالاً رضى الله عنه. وكل المسلمين فى أنحاء الأرض يعظمون بلالاً رضى الله عنه، ويقولون: رضى الله عنه مؤذن رسول الله ﷺ.

هذا ما جاء به الإسلام فى فريضة الحج.

الحج فريضة عظيمة يحقق الإسلام بها للمسلمين هذه المكاسب فى حياتهم، خصوصًا المكسب الروحى. المسلم ترتفع روحانيته، ترتفع مَوْجة الإيمان فى قلبه حينما يذهب إلى هذه البلاد ملبيًّا ذاكرًا طائفًا ساعيًا راكعًا ساجدًا داعيًا الله تبارك وتعالى، يحس

---

(١) رواه البيهقى وقال: فى اسناده بعض من يجهل. ولكن رواه أحمد فى المسند (٢٣٤٨٩) عن رجل من الأنصار وقال محققو المسند: إسناده صحيح، وقال ابن تيمية فى (اقتضاء الصراط المستقيم): إسناده صحيح، وصححه الألبانى فى تخريج كتاب (الحلال والحرام للقرضاوى). انظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى: ٢/ ٧٧٣ - ٧٧٤ برقم ١٨٠٠).

بشحنة إيمانية أقوى من الشحنة العادية. ولهذا يذهب كثير من الناس عصاة ويعودون تائبين من أثر هذه الشحنة، وكثير من الناس يعلق توبته على الحج، يقول: إن شاء الله ناوى أحجّ ثم أعود تائبًا. وتنوى بعض النساء أن تذهب إلى الحج وتعود محجبة وبعيدة عن العُرى وعن الكاسيات العاريات.. إلخ.

● **الحج المبرور وشروطه:**

الحج يعطى المؤمن هذه الشحنة، خصوصًا الحج المبرور الذى قال فيه ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»(١). فما هو الحج المبرور الذى يدعو الناس بعضهم لبعض فيقولون: جعل الله حجك مبرورا، وسعيك مشكورا، وذنبك مغفورا؟ ما هو الحج المبرور؟

الحج المبرور له مقومات وشروط:

١ - المال الحلال:

أول هذه الشروط: أن يكون من مال حلال.

بعض الناس يذهب فيكسب أمواله حيثما اتفق، بل يخطط لكسب المال من الحرام.. من الربا.. من الرشوة التى كثيرا ما يسمونها (العمولة).. من هذه الأموال التى تؤكل بالباطل، لم تكد فيها يمينُه، ولم يعرق فيها جبينه، جمع هذه الثروة من هنا وهناك، وكما جاء فى حديث البخارى: «يأتى على الناس زمان لا يبالى المرء ما أخذ: أمن الحلال أم من الحرام»(٢). هذا الذى يأكلها (والعة) متأججة يأتى بعد ذلك ويقول: أذهب إلى بيت الله الحرام لأطهر نفسى! لا يطهرك الحج ولا العمرة ولا الصيام ولا القيام، إلا أن ترد الأموال إلى أصحابها، إلا أن تتطهر من هذا المال الحرام، فإن الله لا يقبل صدقة من غلول(٣). لا يقبل الله الصدقة من المال الحرام، ولا الحج من المال الحرام.

وفى بعض الأحاديث: «أن الإنسان إذا كسب ماله من حرام وحج من حرام وقال:

---

(١) رواه البخارى فى العمرة (١٧٧٣) ومسلم فى الحج (١٣٤١٩) عن أبى هريرة.

(٢) رواه البخارى فى البيوع (٢٠٥٩)، والنسائى وزاد رزين فيه «فإن ذاك لا تجاب لهم دعوة» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى: ٢/ ٥٠٤ برقم ٩٦١).

(٣) روى مسلم فى الطهارة (٢٢٤) عن ابن عمر: «لا تقبل صلاة بغير طهور، ولا صدقة من غلول».

OBEIKANDI.COM

لبيك اللهم لبيك، قيل له: لا لبيك ولا سعديك وحجك مردود عليك ارجع مأزوراً غير مأجور»[1].

هذا الذى يحج من المال الخبيث لا يُستجاب له، ولا يقبل منه، حجه مردود عليه، ويقول الشاعر:

إذا حججت بمال أصله دَنِسٌ فما حججت ولكن حجّت الإبل!

الجمل الذى حججت عليه هو الذى حج، إنما أنت لم تحج. الآن نقول: السيارة هى التى حجت، أو الطيارة هى التى حجت، أما أنت فلم تحج.

لا يقبل الإسلام أن يأكل الإنسان مال الناس بالباطل، وبأى طريق، ثم يقول: أذهب إلى الحج أو العمرة، أو أبنى مسجداً لله، أو أكفل الأيتام. لا، اكفل من مالك لا من مال غيرك، هذا المال ليس ملكك، تطهر منه قبل كل شىء.

أول شروط الحج المبرور: أن يكون من مال حلال.

٢ - إخلاص النية لله:

وثانى الشروط: أن يخلص النية لله، يجعل نيته لله عزّ وجلّ، لارياء ولا سمعة، لا ليكون اسمه: الحاج أحمد، لا، اجعل نيتك لله، حُج لله عزّ وجلّ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى..»[2]، ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾ [البينة: ٥]، ﴿**فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ**﴾ [الزمر: ٢].

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط، وقال الهيثمى: رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه سليمان بن داود اليمانى وهو ضعيف (١٠/٢٩٢) وقال ابن رجب فى جامع العلوم والحكم: إسناده فيه ضعيف (١/٢٦١) وذكره الألبانى فى ضعيف الترغيب والترهيب (٧١١). ونصه: إذا خرج الرجل حاجاً بنفقة طيبة ووضع رجله فى الغرز، فنادى: لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء: لبيك وسعديك، زادك حلال، وراحلتك حلال، وحجك مبرور غير مأزور، وإذا خرج الرجل بالنفقة الخبيثة، فوضع رجله فى الغرز، فنادى لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء، لا لبيك ولا سعديك، زادك حرام ونفقتك حرام، وحجك غير مبرور.

(٢) جزء من حديث عمر رضى الله عنه الذى رواه البخارى فى بدء الوحى (١). ومسلم فى الإمارة (١٩٠٧) بلفظ: إنما الأعمال بالنية... وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة، وتتمته: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». والحديث أصل من أصول الإسلام، ولهذا أفاض العلماء فى شرحه.

فلا بد أن تجرد نيتك، وتحرر بواعثك، من كل هذه الشوائب التى تشوب الإخلاص لله عز وجل.

بعض الناس لا يخلص النية لله، تشوبها بعض الشوائب. ذهب بعضهم ليسلم على حاج جاء من هذه الرحلة، فأراد أن يعرف زائره أنه حج مرات فقال: هاتوا لنا طبق كذا، فجاؤوا بطبق، قال: هذا طبق من الحجة السابعة هاتوا طبقا من الحجة الجديدة هذه! يريد أن يعرف أنه حج مرات ومرات، وبهذا يبطل عمله والعياذ بالله، ﴿ **كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا** ﴾ [البقرة ٢٦٤].

النية، النية أساس قبول العمل، الإخلاص لله عزّ وجلّ.

٣ - تجنب الرفث والفسوق والجدال:

الأمر الثالث: أن يسلم حجه من الرفث والفسوق والجدال، كما قال الله تعالى: ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ..** ﴾ [البقرة: ١٩٧].

الرفث: ما يتعلق بالأمور الجنسية، يجب أن ينزه الإنسان نفسه ولسانه من هذه الأمور خصوصاً مادام فى حالة الإحرام.

﴿ **وَلَا فُسُوقَ** ﴾: لا يرتكب المعصية، المعصية محرمة فى كل وقت، ولكن فى هذا الوقت تزداد حرمتها، وتتضاعف عقوبتها.

﴿ **وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ﴾: ليكون رحلة سماحة، ومسالمة.

ولذلك جاء فى الحديث الصحيح: «من حج فلم يرفث، ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[1]، ميلاد جديد للإنسان، وإذا حج حجًّا مبرورا تَطَهر، ولد من جديد. فليعد ليبدأ صفحة جديدة مع الله، من كان معوجاً قبل الحج فليستقم بعد الحج، من كان عاصيًا قبل الحج فليتُب بعد الحج، من كان متنجسا بالمعاصى والقاذورات قبل الحج فليتطهر بعد الحج، لتتغير حياته.

---

(١) متفق عليه كما فى اللؤلؤ والمرجان (٨٥٦) رواه البخارى فى الحج (١٥٢١) ومسلم فى الحج (١٣٥٠) عن أبى هريرة.

OBEIKAN.COM

هكذا ينبغى أن يكون المسلم الذى يحج.

لقد أثر الحج فى حياة المسلمين من قديم، وكان الحج يكلف الإنسان كثيرا، لم يكن كهذا العصر، الآن ساعتان وتكون فى جدة، الناس كانوا يأتون من بلاد بعيدة.

رأى بعض العلماء أحد الناس يطوف وهو ينشد ويقول:

زُر من تُحبُ وإن شطّت بك الدار وحـال مـن دونـه حجبٌ وأستارُ

لا يمنعـنّك بُعـدٌ عـن زيـارتـه إن المحـب لمـن يهـواه زوّارُ

فعرف أنه جاء من مكان بعيد، فقال: من أى البلاد جئت؟ قال: من كذا وكذا.. من الصين أو نحوها. قال: ومتى خرجت؟ قال: أترى رأسى ولحيتى الآن؟ قال: نعم أراها بيضاء ليس فيها شعرة سوداء. قال: خرجت من بلدى وليس فى شعرة بيضاء! لأنه كان يذهب ويعمل فى الطريق، كلما نزل بلداً عمل بها، بلد ترفعه وبلد تحطه - كما يقولون - حتى يصل.

الآن يسّر الله أمر الحج.

● **أثر الحج فى الشخصية المسلمة:**

الحج له أثر بالغ فى حياة المسلمين، حتى إن رئيس البعثة التبشيرية فى مصر فى أوائل هذا القرن كتب تقريراً عن الحالة الإسلامية فى مصر، قال فى ختام هذا التقرير: سيظل الإسلام فى مصر صخرة عاتية تتحطم عليها محاولات التبشير المسيحى مادام للمسلمين هذه الدعائم الأربع: القرآن، والأزهر (أى العلماء الذين يعلمون الناس)، واجتماع الجمعة الأسبوعى (الذى يجمع المسلمين على موعظة وعلى ذكر الله عز وجل)، ومؤتمر الحج السنوى (يذهب المسلم عاصياً ويرجع مطيعاً، يرجع بشحنة قوية) فكهذا قرر هؤلاء.

الحج هو من المؤثّرات التى تبقى على الشخصية المسلمة، تبقى عليها مستقيمة مع أمر الله.

يا أيها الإخوة: هذه بعض لمحات عن تلك الفريضة العظيمة التى خصّنا الله بها نحن المسلمين لنشهد منافع لنا: منافع دينية ومنافع دنيوية، منافع فردية ومنافع اجتماعية، منافع اقتصادية ومنافع روحية، ﴿ **لِيشهدوا منافِع لَهُم ويذْكروا اسم اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ..** ﴾ [الحج: ٢٨].

نسأل الله عز وجل أن يجمع كلمة هذه الأمة على الهدى، وقلوبها على التقى، ونفوسها على المحبة، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل.

أقول قولى هذا وأستغفر الله تعالى لى ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● **الخطبة الثانية:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

● **اغتيال إسرائيل لقادة (حماس):**

بالأمس ودع عشرات الآلاف من الجماهير الفلسطينية الغاضبة جثمان الشهيد (محى الدين الشريف)، ودعوه إلى مثواه الأخير.

هذا الشهيد تدل كل الدلائل على أن (الموساد) الإسرائيلى هو الذى قام باغتياله، قتله بالرصاص ثم وضعه فى سيارة مفخخة تعمية، ليقال: إن السيارة انفجرت فيه. ولكن الدلائل كلها تكذبهم، وتشير إليهم، تشير إلى هؤلاء الإرهابيين الذين قتلوا من قبل سلفه المهندس يحيى عياش، وقتلوا يحيى الشقاقى، وحاولوا قتل خالد مشعل رئيس المكتب السياسى، ولا زالوا يحاولون كما قال الوزير الإرهابى المعروف (آرييل شارون) وزير البُنى التحتية فى إسرائيل، قال: إذا كنا فشلنا فى اغتيال خالد مشعل المرة الأولى، فهذا لن يجعلنا نيأس، سنحاول مرة ومرة ومرة، ولن يفلت منا.

ولكن الله من ورائهم محيط.

هذا كله يدلنا على ما قلناه وكررناه وأكدناه ولازلنا نؤكده: أن الإرهابى الأكبر هو إسرائيل، هم هؤلاء الصهاينة الذين لا يرعون لأحد عهداً ولا حُرمة، ولا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة، يستبيحون الدماء، ويستبيحون الأموال، ويستبيحون الحرمات، ويقولون: ﴿ .. **لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** .. ﴾ [آل عمران: ٧٥]. علّمهم تلمودهم أن كل هؤلاء الأغيار مستباحو الدماء والحرمات، كل العالم أحط من البهائم وأذل من الكلاب عندهم. فلا مانع أن يسفكوا الدماء، وأن يهتكوا الأعراض، وأن ينتهكوا الحرمات، وأن يدمروا كل شىء فى سبيل تحقيق أهدافهم وأغراضهم، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة.

هم قوم ليسوا أخلاقيين، لا يعتمدون الأخلاق، الأخلاق عندهم مهدرة.

المسلمون قوم أخلاقيون، لا يفعلون شيئًا إلا إذا أجازه لهم دينهم، ودينهم لا يجيز لهم الشيء إلا بشروط وضوابط شديدة. الإسلام يرفض مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة)، إنه يريد الغاية الشريفة والوسيلة النظيفة، لا بد لشرف الغاية من طُهْر الوسيلة. ولهذا الإسلام فى الحرب يقول: لا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناء، ولا تقتلوا امرأة. حتى الرهبان فى الصوامع نهى عن قتلهم.

أما هؤلاء فلا يحرمون شيئًا، يستبيحون كل شيء.

وأحب أن أقول لهؤلاء: افعلوا ما شئتم، هذا لن يفت فى أعضاد المؤمنين. أبناء حركة حماس الذين فقدوا هذا الشهيد وفقدوا شهداء من قبله، لن يفت هذا فى أعضادهم، فقد باعوا أنفسهم لله، ووضعوا رؤوسهم على أكفهم، وجعلوا أرواحهم فى أيديهم ووهبوها لله عزّ وجلّ، وقال قائلهم:

ولست أبالى حين أقتل مسلمًا على أى جنب كان فى الله مصرعى

لن يخذلهم، ولن يضعفهم، ولن ينال منهم: من يقدموه من الشهداء. بل يزيد المعركة وقوداً، كلما قدم شهيد كان هذا شعلة جديدة، وزيتًا جديداً لهذه المعركة، يزيد فى رصيد الإخوة المجاهدين.

العجيب أنه حتى الأمهات يستقبلن هذه الحوادث بالزغاريد، وهذا يذكرنا بالإخوة فى السودان حينما يقدمون الشهداء يقيمون بعض الليالى يسمونها (عرس الشهيد)، الشهيد ذهب إلى ربه ليتزوج من الحور العين. هذا عرس، لا يبكون، ولا يلطمون خداً، ولا يشقون جيبا. هذه هى الروح الإسلامية التى صنعها الإسلام، وهى التى تخيف اليهود.

عندما سعى (رابين) و(بيريز) إلى اتفاق (أوسلو) كانوا يريدون أن يخمدوا هذه الشعلة، وأن يطفئوا هذه الثورة – الانتفاضة الإسلامية – التى انطلقت من المساجد، وجعلت راياتها المصاحف، وكان نشيد أطفالها:

خيبر خيبر يا يهود جيش محمد سوف يعود

أرادوا أن يتخلصوا من هذه الانتفاضة الإسلامية، ويلهوا الفلسطينيين بهذا الاتفاق الذى لم يأخذوا من ورائه شيئًا. لم يكسبوا منه قليلاً ولا كثيراً، ولا نقيرا ولا قطميرا.

كانوا يريدون أن يضربوا الفلسطينيين بعضهم ببعض، ثم يتفرجوا. والحمد لله لم يحدث ذلك، بل نتوقع إن شاء الله أن تفشل هذه المسيرة من أولها إلى آخرها، الكتاب يُقرأ من عنوانه، هذه المسيرة ستصير إلى إخفاق، وستنضم السلطة إلى الشعب، وتعود انتفاضة جديدة أقوى وأعمق وأشد مما كانت.

المهم أن نثق بأنفسنا، أن نتحرر من ضعف الأنفس.. من اليأس.. من الوهن الذى حذرنا منه النبى ﷺ، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»(١).

ينبغى أن نتحرر من حب الدنيا ومن كراهية الموت، وأن نقبل على الموت لا نبالى، كما يقبل هؤلاء الشباب من أبناء حماس، لا يُبالون ما يصيبهم فى سبيل الله.

كان خالد بن الوليد يرسل رسائله إلى قادة الفرس والروم يدعوهم إلى الإسلام ثم يقول فى ختام رسائله: (وإلا غزوتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة). وكما قال أبو بكر لخالد: (احرص على الموت توهب لك الحياة).

عباد الله، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٥٦]. اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿**..وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* * *

(١) قطعة من حديث ثوبان الذى أخرجه أحمد فى المسند (٢٢٣٩٧) وقال محققوه: إسناده حسن. وأبو داود (٤٢٩٧)، ونصه: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قال قائل: يا رسول الله ومن قلة يومئذ؟ قال: لا بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، ولتعرفن (فى أبو داود: وليقذفن الله) فى قلوبكم الوهن، قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

OBEIKAN.COM

(٥)
الاستقامة وأثرها فى حياة المسلم

● **الخطبة الأولى:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

● **كثرة أخبار السرقة والاختلاس:**

تطلع علينا الصحف ووسائل الإعلام ما بين الحين والحين بأنباء يَندْى لها الجبين، ويتقطع منها القلب، لما تدل على ضعف الدين، وقلة اليقين، وانحراف الأخلاق، وموت الضمائر.

تطلع علينا الصحف باختلاسات يختلسها الكبار من الناس، ليست بالمئات ولا بالآلاف، إنها بالملايين أحيانًا وبعشرات الملايين وبمئات الملايين.

هكذا نقرأ ما بين الحين والحين عن اختلاسات كبراء ووزراء ومديرين، اختلاسات من أموال الدولة، ومن أموال المؤسسات العامة التى ائتمنهم الناس عليها.

وآخر ما قرأناه من هذه الاختلاسات التى يذهل لها الإنسان وتذر الحليم حيران: ما قرأناه عن بنك دبى الإسلامى، أول بنك أقيم فى هذا العالم على أساس من الإسلام، ليُحل ما أحلّ الله ويحرّم ما حرم الله. كان لدبى هذا السبق، وكان لها هذا الفضل، والفضل للمبتدى وإن أحسن المقتدى.

ولكن كيف استطاع هؤلاء اللصوص أن يصلوا إلى هذه المؤسسات الإسلامية، وأن يتسنموا ذروتها، ويسيطروا على أجهزتها، ويتحكموا فيها؟

ولو كان الاختلاس من موظف عادى لقلنا يمكن أن يُعقل. أما أن يكون الاختلاس والسرقة من المدير، فهذا ما ينطبق عليه المثل القائل: حاميها حراميها! وكما قال الشاعر قديما:

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب؟!

الراعى يحمى الغنم من الذئب، فكيف إذا كان الذئب هو الراعى؟! هذه هى المصيبة التى نراها فى كثير من المؤسسات العامة والمؤسسات الحكومية.

OBEIKAN.COM

● **آفة فساد الضمير والخلق:**

علام يدل هذا؟ يدل هذا على موت الضمائر، على فساد الأخلاق، على أن الناس لم يعودوا يؤمنون بالله إيمانًا حقيقيًّا، ولا بالآخرة، لم يعودوا يرجون الله ويخافونه، فغلّبوا حب الدنيا على الآخرة، غلّبوا الأولى على الآخرة، غلبوا حب المال على حب الله عز وجل، فلم يبالوا ما أخذوا أمن حلال أم من حرام؟ بل خططوا لكسب الحرام.

والإنسان إذا لم يُقْنعه الحلال، لا يُشْبعه شئ. لا هو بالقليل يقنع ولا من الكثير يشبع، فصاحب العشر يبغى عشره مائة، وصاحب الألف يبغى الألف مليونا، وصاحب المليون يريد المليون عشرة ملايين أو مائة مليون، وصاحب المائة يريدها ملياراً، وصاحب المليار لا يكتفى بالملياراث وإنما يريد أن يزيد ويزيد. مثل هؤلاء كمثل جهنم، يُقال لها هل امتلأت؟ وتقول هل من مزيد؟!

هذه هى المصيبة، مصيبة فساد الأخلاق، وفساد الأخلاق من ضعف الإيمان واليقين، وإذا فسدت أخلاق أمة فقد أصبحت مهددة بالانهيار أو بالزوال، كما قال أمير الشعراء شوقى رحمه الله:

فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال:

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتمًا وعويلا

ويقول:

وليس بعامر بنيانُ قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

الإنسان إذا خربت أخلاقه ومات ضميره، يبيع نفسه، يبيع عائلته، يبيع شرفه، يبيع وطنه لأعدائه.

من أغرب ما قرأته: ذلك الإنسان الفلسطينى – نسيت اسمه ذكرته الصحف – الذى يطالب إسرائيل بخمسة وعشرين مليون دولار، لماذا؟ لأنه ساعدهم على قتل المهندس المؤمن المجاهد (يحيى عياش). أوصلهم إليه على أن يدفعوا له خمساً وعشرين مليون دولار، وبعد أن نفّذ العملية ضحكوا عليه، إلى جهنم وبئس المصير.

ماذا تقولون فى مثل هذا الإنسان، الذى يبيع ضميره ويبيع وطنه ويبيع دينه ويبيع أمته؟

● **حاجة الأمة إلى الاستقامة:**

نحن فى حاجة إذن إلى إستقامة.. استقامة أخلاقية، الحياة لا تستقيم ولا تَرتقى إلا بأهل الاستقامة ﴿**الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [فصلت: ٣٠] لا تستقيم الحياة ولا تنهض ولا يرتقى الناس، إلا بهؤلاء المستقيمين.

جاء رجل - سفيان بن عبدالله الثقفى الطائفى - إلى النبى ﷺ، وقال: يا رسول الله: قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك فقال له: «قل آمنت بالله، ثم استقم»[١]. الرجل لا يريد إكثار الوصايا، يريد وصية جامعة موجزة يحفظها ويعيها ويعمل بها، وكان النبى ﷺ قد أوتى جوامع الكلم، فقال له فيما رواه مسلم: «قل آمنت بالله، ثم استقم». وفى رواية الترمذى: أنه قال: يا رسول الله، حدثنى بأمر أعتصم به؟ فقال: «قل ربى الله، ثم استقم»، قال: ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه، ثم قال: «هذا»[٢]. أخاف عليك هذا اللسان.

«قل ربى الله ثم استقم» وهذا اقتبسه ﷺ من القرآن حيث قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤]. وفى السورة الأخرى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ**﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان (٣٨) ورواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة، عن سفيان بن عبدالله الثقفى (فيض القدير للمناوى: ٤/ ٥٢٣ برقم ٦١٤٣).

(٢) رواه الترمذى فى الزهد (٢٤١٢) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٧٩٢)، وابن حبان فى صحيحه (٥٦٩٨)، والحاكم (٤/ ٣١٣)، وقال صحيح الإسناد، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى: ٢/ ٧٤٦ برقم ١٧٢٤). وذكره الألبانى فى صحيح الترمذى (١٩٦٥).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ جاء عن أبى بكر رضى الله عنه قال: ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ أى لم يلتفتوا إلى إله غير الله. يعنى: أخلصوا التوحيد، أحكموا حقيقة التوحيد. وعن عمر رضى الله عنه قال: استقاموا والله لله بطاعة الله، ولم يروغوا روغان الثعالب. يعنى: استقامة حقيقية على الصراط المستقيم.

الله تعالى علّمنا أن نسأله الهداية كل يوم إلى الصراط المستقيم: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] هذه هى الاستقامة، الاستقامة على هذا الصراط.

أمر الله رسوله مرتين فى القرآن بالاستقامة فى سورة هود وفى سورة الشورى:

قال تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا.. ﴾ [هود: ١١٢].

وقال: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ كما أمرك الله.

ذكر القشيرى رحمه الله أن أحد الصالحين رأى رسول الله ﷺ فى المنام فسأله وقال له: يا رسول الله، لقد قلت: «شيبتنى هود وأخواتها»[1]، فما الذى شيبك من هود؟ فقال له: قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾.

الاستقامة تعنى: أن تثبت على الحق، وأن تقف عند حدود الله، وأن تبتعد عما حرم الله، وأن تسير فى الطريق إلى الأمام، لا ترجع إلى القهقرى، رجوع القهقرى ليس استقامة، ولا تتوقف، فإن المتوقف لا يُسمّى مستقيما. ولا تنحرف يمينا ولا يسارا، فالاستقامة ضد الانحراف. النبى ﷺ - كما روى

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى التفسير (٣٢٩٣) عن أبى بكر ولفظه: «شيبتنى هود» والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت وذكره الألبانى فى صحيح الجامع (٣٧٢١).

ابن مسعود[1] ـ خط لأصحابه على الرمل خطًا مستقيما « ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله (أى متعرجة مائلة) وقال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، وقرأ ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾

[الأنعام: ١٥٣]

الاستقامة: هى السير إلى الأمام فى خط مستقيم؛ هو الصراط الذى رسمه الله تعالى لعباده.

● **استقامة القلب:**

الاستقامة: هى استقامة القلب أولاً على حقيقة التوحيد، فلا ترجو إلا الله، ولا تخشى إلا الله، ولا تعتمد إلا على الله، ولا تثق إلا بالله، ولا تحب ولا تكره إلا فى الله، ولا تُعطى ولا تَمنع إلا لله، كل شىء عندك لله، موصول بالله « من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان »[2].

هذه هى استقامة العقيدة، أن تستقيم على التوحيد، فلا تتخذ غير الله ربا، ولا تتخذ غير الله وليا، ولا تبتغى غير الله حَكَما.

استقامة القلب أولاً، فإن القلب هو ملك الأعضاء والأعضاء جنود، وكما جاء فى الحديث الصحيح: « .. ألا وإن فى الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهى القلب »[3].

● **استقامة اللسان والجوارح:**

ثم بعد ذلك استقامة اللسان، كما روى الإمام أحمد من حديث أنس رضى الله عنه: « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٤٤٣٧) وقال محققوه: إسناده حسن.

(٢) رواه أبو داود فى السنة (٤٦٨١).

(٣) جزء من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما، وأوله: « الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه.. » متفق عليه كما فى اللؤلؤء والمرجان، رواه البخارى فى الإيمان (٥٢) ومسلم فى المساقاة (١٥٩٩).

OBEIKAN.COM

يستقيم لسانه»[1]، استقامة اللسان دليل على استقامة القلب. وفى حديث آخر: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان (أى تخضع له) فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»[2].

ثم بعد ذلك استقامة الجوارح كلها على طاعة الله، تستقيم يدك، وتستقيم رجلك، ويستقيم بصرك، ويستقيم سمعك، وتستقيم كل جوارحك على طاعة الله، فلا ترتكب الحرام، ولا تتعدى حدود الله عز وجل.

هذه هى الاستقامة.

● **الاستقامة على طريق الحق:**

ومن مكمِّلات الاستقامة ما ذكره الله تعالى فى سورة (هود) من اللاءين، قالوا: الدين بين لاءين، وهى قوله تعالى: ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ** (أى من تاب معك من الصحابة، تابوا من الشرك وتابوا من انحرافات الجاهلية) **وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ** ﴾ [هود: ١١٢، ١١٣].

﴿ **وَلَا تَطْغَوْا .... وَلَا تَرْكَنُوا** ﴾: الطغيان: أن تتجاوز الحد إما فى حقوق الناس أو فى حدود الله، أن تتجاوز الحلال إلى الحرام، أن تتجاوز العدل إلى الظلم، كما وصف الله تعالى فرعون حينما قال لموسى ﴿ **اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ** ﴾ [طه: ٢٤].

---

(١) رواه أحمد فى المسند (١٣٠٤٧) عن أنس، وقال محققو المسند: حديث صحيح وهذا إسناد قوى. وابن أبى الدنيا فى الصمت، كلاهما من رواية على بن مسعدة الباهلى، قال الهيثمى: وثّقه جماعة وضعّفه آخرون. وقال الحافظ فى التقريب: صدوق له أوهام. وتتمته: «ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى: ٢/ ٧٤٦ - ٧٤٧ برقم ١٧٢٦).

(٢) رواه الترمذى فى الزهد (٢٤٠٩)، وابن خزيمة فى صحيحه، والبيهقى فى شعب الإيمان، وابن أبى الدنيا، عن أبى سعيد الخدرى. وقال الترمذى: رواه غير واحد عن حماد بن يزيد ولم يرفعوه، قال: هو أصح. قال المناوى: ومع ذلك إسناد الرفع جيد لكن الموقوف أجود والله أعلم (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى: ٢/ ٧٤٨ برقم ١٧٣٠). وذكره الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥١).

والله تعالى يعلمنا الاستقامة وعدم الطغيان فقال: ﴿ **وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ** ﴾ [الرحمن: ٧ – ٩] هذه هى الوسطية، لا طغيان ولا إخسار.

﴿ .. **وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [هود: ١١٢] يعلَم كل أعمالكم ويبصرها، ويطلع عليها، جليّها وخفيّها، ويجازيكم عليها.

﴿ **وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ..** ﴾ [هود: ١١٣]، لا تطغى ولا تظلم، ولا تركن إلى طاغية أو ظالم، لا تكن عونًا لظالم، لا تكن سوطًا فى يد ظالم، لا تُسخّر نفسك خادمًا لظالم، فإنك بذلك تكون شريكه، تكون معه من حطب جهنم، أعوان الظلمة كلاب النّار.

﴿ **وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ..** ﴾ [هود: ١١٣] الركون إلى الظلمة: الاستناد إليهم والاعتماد عليهم، بحيث تسير فى ركابهم، وتحرق البخور بين أيديهم، وتكون معهم فى الخير والشر، والعدل والظلم، والحسن والقبيح، والمعروف والمنكر، هذا ما ينكره الإسلام.

الإسلام يريد من المسلم أن يكون مع الحق والعدل، لا مع الباطل والظلم.

وقف سيدنا أبو بكر رضى الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ على المنبر وقال: يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ..** ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»(١). وهذا ما قاله القرآن: ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الأنفال: ٢٥].

لا تكن طاغية، لا تطغى، ولا تركن إلى ظالم، ولا تكن عونًا لظالم، هذه هى حقيقة الاستقامة.

---

(١) رواه أبو داود فى الملاحم (٤٣٣٨)، والترمذى فى التفسير (٣٠٥٩) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه فى الفتن (٤٠٠٥)، والنسائى، وابن حبان فى صحيحه، وقال النووى فى الأذكار والرياض: أسانيده صحيحة وذكره الألبانى فى صحيح أبى داود (٣٦٤٤). (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى: ٢/ ٦٤٣ برقم ١٣٧٥).

حاجة أمتنا للاستقامة:

نحن فى حاجة إلى أمة تستقيم على أمر الله، إنما نجح المسلمون فى العصور الأولى، إنما انتصروا على الدول الكبرى.. على كسرى وقيصر.. على الفرس والروم، وأقاموا دولة العدل والإحسان، وأنشأوا حضارة العلم والإيمان، إنما فعلوا ذلك يوم كانوا أهل استقامة على أمر الله.

استطاع رسول الله ﷺ أن ينشأ من عرب الجاهلية عرب الإسلام، أن يُحوّل عمر الجاهلية إلى عمر الإسلام، وخنساء الجاهلية إلى خنساء الإسلام.

بهؤلاء انتصر الإسلام فى العالم، وقامت دولة الإسلام الكبرى، وانتشر الإسلام فى العالمين.

ربَّى النبى عليه الصلاة والسلام الصحابة، والصحابة ربَّوا التابعين، والتابعون ربوا أتباعهم، وهكذا انتشرت التربية النبوية المحمدية إلى العالم.

التربية على الاستقامة: أن تقول ربى الله ثم تستقيم على هذا الأمر، وتثبت عليه، وتدفع ضريبته مهما كانت.

كلمة (ربى الله) ليست كلمة هينة. إن موسى عليه السلام قال: ربى الله – سأله فرعون وأخوه هارون معه: ﴿ **قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠] – فأراد فرعون أن يقتل موسى: ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ** ﴾ [غافر: ٢٦]. فساق الله لموسى رجلاً مؤمنًا من آل فرعون يكتم إيمانه، ووقف يدافع عنه بقوة المؤمن وإيمان القوى ويقول: ﴿ **..أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ..** ﴾ [غافر: ٢٨] أمن أجل أن يقول ربى الله تقتلونه؟

قالها رسول الله ﷺ فأُوذى ما أُوذى فى نفسه وأهله وأصحابه.

قالها الصحابة فعذبوا، وأُوذوا، وشردوا، وهاجروا وأخرجوا من ديارهم كما قال تعالى: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ***

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ .. ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]. ما كان لهم من ذنب اقترفوه، ولا جرم ارتكبوه، إلا أنهم قالوا ربنا الله، ولنعم ما قالوا.

«قل ربى الله ثم استقم» ، ليستقم سلوكك ويستقم عملك، كما استقامت عقيدتك وكما استقام إيمانك، واثبُت على ذلك حتى يكون لك الجنة، وحتى تتنزل عليك الملائكة عند الموت وعند البعث ﴿ .. تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ (مبشرة) أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ .. ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١] كنا معكم أولياء ونصراء فى الدنيا، ونحن فى الآخرة معكم نستقبلكم.

فهكذا ينبغى أن يكون أهل الإيمان.

لا تصلح الحياة إلا بالاستقامة، لا تنهض المجتمعات إلا بالاستقامة، لا تستقيم المؤسسات إلا بالاستقامة.

وليس معنى الاستقامة: العصمة من الذنوب، لا يوجد إنسان معصوم، النبى ﷺ يقول: «استقيموا ولن تُحصُوا..»[1] لن تُحصوا: أى لن تقدروا على الكمال، سددوا وقاربوا، والله تعالى يقول لرسوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ .. ﴾ [فصلت: ٦] معنى ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾: أنكم لا بد أن تصدر منكم هفوات وخطايا، فإن الإنسان ليس معصوما، والإنسان خُلق من طين، والطين لا يخلو من الكدر. فإذا حدث

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد (٢٢٣٧٨) وقال محققو المسند: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح، وابن ماجة، والحاكم وصححه على شرطهما، والبيهقى فى السنن، عن ثوبان. قال المنذرى: إسناد ابن ماجه صحيح، وقال الحافظ العراقى: حديث حسن رواته ثقات إلا أن فى سنده انقطاعًا. ورواه البيهقى فى الشعب والطبرانى فى الكبير عن ابن عمرو، قال مغلطاى: إسناده لا بأس به. ورواه الطبرانى فى الكبير عن سلمة بن الأكوع، قال الرافعى: إنه حديث ثابت (فيض القدير للمناوى: ١/ ٤٩٧ برقم ٩٩٤) (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ١٤٧ برقم ١٢٢).

منك شيء فراجع نفسك وعُدْ إلى الله تائبًا مستغفرًا ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾، وكما قال النبى ﷺ لأبى ذر: «.. وأتبع السيئة الحسنة تمحها..»[1] وقال الله تعالى: ﴿.. إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ..﴾ [هود: ١١٤].

ما أحوج أمتنا إلى الاستقامة، ما أحوجنا أفراداً وجماعات إلى الاستقامة. بالاستقامة تطمئن نفوسنا، تسعد قلوبنا بالسكينة، بدل القلق الذى أتعب الناس وعذّب الناس.

الاستقامة بالإيمان والاستقامة بالسلوك تجعل الإنسان يعيش مرتاح الضمير، ويعيش فينام ملء جفنيه، ليس بينه وبين أحد خصومة، لم يسرق، ولم يختلس.

هؤلاء السارقون المختلسون لن يهنأوا بما سرقوا وما اختلسوا، سيبتليهم الله بما ينغص عليهم حياتهم، لن يسعدوا بما سرقوه وما اختلسوه والله، وإن كانوا يلعبون بالملايين لعبا. ليس المال هو كل شيء فى الحياة، الحياة أكبر من المال، وأعمق من المادة، وأوسع من هذه المُحَسَّات التى يركض الناس وراءها، وكما قال النبى ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَضَ، ولكن الغنى غنى النفس»[2]، وقال علىٌ رضى الله عنه:

يعز غنى النفس إن قلَّ ماله ويغنى غنى المال وهو ذليل

أسأل الله تبارك وتعالى أن يكفينا بحلاله عن حرامه، وبطاعته عن معصيته،

---

(١) قطعة من حديث رواه أحمد (٢١٣٥٤) وقال محققو المسند: حسن لغيره وهذا إسناد رجاله ثقات، والترمذى وقال: حسن صحيح، والحاكم وصححه على شرطهما وأقره الذهبى، والبيهقى فى شعب الإيمان، عن أبى ذر رضى الله عنه. ورواه أحمد، والترمذى وحسنه، والبيهقى فى الشعب، والطبرانى، عن معاذ رضى الله عنه، قال الذهبى: إسناده حسن. ورواه ابن عساكر عن أنس بن مالك رضى الله عنه بسند ضعيف، ورواه عنه أيضاً الطبرانى وغيره. قال المناوى: فالإسناد الأول صحيح، والثانى حسن، والثالث ضعيف (فيض القدير للمناوى: ١/ ١٢٠ - ١٢١ برقم ١١٥) ونصه كاملاً: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

(٢) رواه البخارى فى الرقاق (٦٤٤٦) ومسلم فى الزكاة (١٠٥١) عن أبى هريرة.

OBEIKAN.COM

وبفضله عمن سواه. ونقول كما قال الحسن رضى الله عنه عندما قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال: اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة. اللهم آمين ادعو الله يستجب لكم.

● **الخطبة الثانية:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

● **الكوارث المتكررة فى رمى الجمرات:**

سمعنا بالأمس خبراً أحزننا، كنا نظن موسم الحج هذا العام موسماً يمر بخير، لا ندرى ما الذى أصاب المسلمين؟ فى كل سنة تحدث لهم فى هذا الموسم العظيم مصيبة. ومنذ سنوات حدث مثل ما حدث بالأمس، مات مئات الناس تحت الأقدام فى مرمى الجمرات.

ولا شك أن المملكة العربية السعودية تبذل جهوداً كبيرة لا ينكرها إلا مكابر، فى سبيل فتح الأنفاق، وإقامة الجسور، وتذليل الطرقات والصعوبات، وخدمة الناس بسبل شتى. ولكن تبقى هناك بعض الآفات التى لا يسلم الناس منها، ومن هذه الآفات:

تدافع الناس إلى مرمى الجمرات تدافعاً غير معقول، وخصوصاً فى ساعة الزوال. وهذا يؤكد ما قلته وأقوله باستمرار: إنه لا داعى أن نلزم الناس بالرمى ساعة الزوال.

إن هناك ثلاثة من الأئمة قالوا بجواز الرمى قبل الزوال:

إمام التابعين وفقيه مكة: عطاء بن أبى رباح.

وإمام اليمن وفقيهها: طاووس بن كيسان.

وإمام أهل البيت: أبو جعفر الباقر.

وقال بذلك بعض فقهاء الشافعية: إنه يجوز الرمى منذ طلوع الشمس.

وألّف فى ذلك العلامة الشيخ عبدالله بن زيد المحمود رحمه الله رئيس المحاكم الشرعية فى قطر منذ حوالى أربعين سنة رسالة سماها: (يُسر الإسلام فى

OBEIKAN.COM

مناسك بيت الله الحرام)، أفتى فيها بجواز الرمى قبل الزوال، ودلّل بأدلة كثيرة منها: قيام الإسلام عامة والحج خاصة على التيسير، وأن النبى ﷺ ما سئل عن أمر قُدّم أو أخر فى الحج إلا قال: «افعل، ولا حرج»، «افعل، ولا حرج»،[1] وهذا الرمي أمر يتم بعد التحلل النهائى من الحج، لا هو من الأركان ولا من الأشياء الأساسية، وأجازوا النيابة فيه، وأجاز الحنابلة أن يُؤخر الرمى كله إلى اليوم الأخير[2].

فلماذا نُشدد على الناس؟

هذه نتيجة التشديد.

الذين يمرون بالميكرفونات يقولون للناس: من رمى قبل الزوال فرميه باطل وحجه باطل... إلخ! والنبى رمى عند الزوال، تحينوا الزوال وارموا كما رمى النبى ﷺ. فينتظر الناس الزوال ويندفعون أمواجًا هائلة، فيحدث ما يحدث.

أما آن لنا أن نتعظ ونُيَسّر على الناس ونفتيهم بجواز الرمى قبل الزوال حتى لا يتكدسوا ساعة الزوال؟ مليونان أو أكثر من مليونين، وأعتقد أن فى الأعوام القادمة سيزيد العدد كلما دخل الحج فى وقت أخف حرارة وألطف هواء.

ماذا يمكن أن تفعله السعودية لمواجهة هذه الأعداد المتزايدة أكثر مما فعلته؟ ما أظن أن عندهم شيئًا يفعلونه أكثر من هذا، إلا التخفيف فى الفتوى.

العدد كبير، والزمان محدود، والمكان ضيق، ولابد أن يقف الناس بحيث تصل الحصوة إلى المرمى، ولا يمكن أن نوسع فى المرمى. فى المطاف ممكن أن نوسع، وإنما فى المرمى لا يمكن أن نوسع فيه لأنه محدود، فماذا تفعل السعودية

---

(١) رواه البخارى فى الحج (١٧٣٧) ومسلم فى الحج (١٣٠٦) عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.

(٢) انظر فتوى الشيخ القرضاوى حول الكوارث المتكررة فى رمى الجمرات فى الجزء الثالث من كتاب (فتاوى معاصرة) ص (٢٦٦ - ٢٧٥). وللشيخ كتاب قيم صدر مؤخرًا عنوانه (مائة سؤال عن الحج والعمرة والأضحية والعيدين) طبعته مكتبة وهبة بالقاهرة، لكنا لا نزال ننتظر منه أن ينجز كتابه الذى وعدنا به منذ سنين طويلة وهو: (فقه الحج) ضمن سلسلة (تيسير الفقه للمسلم المعاصر فى ضوء القرآن والسنة) والتى صدر منها حتى الآن: (فقه الطهارة) و(فقه الصيام). فنسأل الله الكريم أن يعينه على إنجازه مع بقية الأجزاء، وأن يمده بروح من لدنه، وأن يرزقه الصواب ويجنبه الزلل، آمين.

OBEIKAN.COM

إلا أن تزيد فى الزمان ما أمكن فتقول: الرمى من الصباح وإلى ما شاء الله من المساء؟ وبذلك نخفف على الناس، و لا يندفع الناس ساعة الزوال بهذه الأمواج البشرية التى لا يستطيع الإنسان أن يفعل فيها شيئا.

ماذا تفعل إذا وجدت إنسانًا تحت رجليك؟ لا تملك أن تفعل شيئًا لأنك مسير لا مخير، الأمواج تدفعك، لا تملك نفسك.

فمن هنا ينبغى أن نُيَسّر على عباد الله فى الحج حتى نتفادى هذه المصائب التى تحدث لنا، سنة تحرق الخيام، وسنة يموت الناس فى النفق، وسنة يموتون فى مرمى الجمرات، ما هذا؟ هذا لا يليق بأمة الإسلام.

نسأل الله تبارك وتعالى أن ينير بصائرنا، وأن يفقهنا فى ديننا.

أما هؤلاء الذين ماتوا فهم شهداء إن شاء الله، لأنهم ماتوا وهم يؤدون عملاً من أعمال الطاعات، وماتوا غرباء عن ديارهم، ومن مات غريبًا مات شهيداً، هم من أقرب الناس إلى الله تبارك وتعالى، ماتوا بنياتهم «وإنما لكل امرئ ما نوى»(١).

إنما نحن نبحث عما ينبغى على الأمة أن تفعله، حتى لا تقع فيها مثل هذه الهزّات فى كل عام.

عباد الله، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿ **.. وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* * *

(١) جزء من حديث عمر رضى الله عنه، وقد مر تخريجه فى الخطبة الماضية.